المكابر الرابع
«الأحمر الأزرق القصير»

الحق دائماً أبلج، لا تتعب الأذهان في سبيل معرفته، ولا تعجز القلوب عن الإحساس به، اللهم إلاَّ إذا حال دون معرفته الحقِّ حائل، من كبرياء وغرور تنشأ عنهما مكابرة وإصرار على الباطل.

هنالك في جانب من جزيرة العرب كان يعيش قوم من العرب عيشة رغدٍ ونعمة، وقد شطحت بهم الأهواء حتى انحرفت بهم عن عبادة الله عز وجل.

وحينما بعث الله سبحانه وتعالى إليهم نبيَّه صالحاً عليه السلام قابلوه بالجحود والنكران، والمكابرة والعناد، ولم يفلح في هدايتهم إلى طريق الصواب، ثم إنَّهم طلبوا منه تعجيزاً ومكابرةً أن يخرج الله لهم من صخرة صمَّاء عيَّنوها له ناقة عشراء تمخض، وكانت الصخرة التي أشاروا إليها منفردة في ناحية من بلادهم المعروفة باسم «الحجر» وكانوا يسمون تلك الصخرة «الكاتبة»، عند ذلك أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمُننَّ به وليتّبُعنَّه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا ربّهُ عز وجل، فتحرَّكت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن «ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها» على الصفة التي طلبوها.

عند ذلك آمن رئيس القوم وهو: «جندع بن عمرو» وآمن معه أتباعه، وأراد بقيَّة أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدَّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، ومعه «الحباب» صاحب أوثانهم.

وكان لجندع بن عمرو ابن عمٍّ له يُدعى «شهاب بن خليفة» وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم فنهاه ذلك الرَّهط (أي الجماعة) الذين لم يسلموا، فأطاعهم، واستسلم لهم.

أقامت الناقة ومعها فصيلها الذي وضعته بين أظهرهم مدّة من الزمن تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها في اليوم الذي تشرب هي فيه الماء، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم.

كانت الناقة ذات حجم كبير وخلق هائل ومنظر رائع، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها.

وكانت تسرح في بعض الأودية، ترد من فجٍّ، وتصدر من غيره ليسعها، لأنها كانت في يوم شربها تتضلَّع من الماء (أي: تشرب شرباً هائلاً).

هنا نتساءل: أليست هذه آية عظيمة؟ ألم يستجب الله سبحانه وتعالى لطلبهم الذي طلبوه ووعدوا أن يؤمنوا بالله إذا تحقَّق؟.

لنا أن نتخيَّل الصورة، حتى نستشعر عظمتها.

هذه صخرة صمَّاء كبيرة جامدة لا روح فيها ولا حركة، فهي أبعد ما تكون عن الحياة في نفسها، فكيف يخرج منها كائنٌ حيٌّ مهما كان صغيراً.

قومٌ عتاة مكابرون لم يستجيبوا لنبيهم، ولا يريدون أن يستجيبوا له، طلبوا طلباً يرون أنه مستحيل التنفيذ، وإنما طلبوه تعجيزاً.

هنا في هذه اللحظة، بعد أن طلبوا طلبهم الغريب، تنفرج أمامهم الصخرة الصمَّاء لتخرج منها ناقة عظيمة حامل.

هنا تحققت المعجزة بإرادة الله، فما الذي منع القوم من التصديق؟

المكابرة، لقد أقامت حاجزاً كبيراً بين عقولهم وبين التفكير السليم، وبين قلوبهم وبين الإيمان والتصديق.

فريقٌ منهم انكسر حاجز المكابرة في نفوسهم بحدوث المعجزة فأعلنوا إيمانهم، أما الآخرون فقد أصرُّوا على كفرهم، وكابروا، وبذلوا جهوداً كبيرة لصرف من أسلم عن إسلامه، ونجحوا مع بعضهم.

أريتم كيف تفعل المكابرة، وماذا يصنع الغرور؟!

هل وقف القوم عند هذا الحد؟!

كلاَّ....

فقد ضاقوا بالناقة ذرعاً، مع أنها كانت تسقيهم اللبن في اليوم الذي تشرب فيه الماء، فهم يشربون الماء يوماً، ويشربون اللبن يوماً.

لقد سعى المكابرون بين قومهم في شأن الناقة، وأقنعوهم بأنها تتسلَّط على مراعيهم فتخاف منها مواشيهم، وتتسلط على مائهم فتحرمهم منه يوماً.

المكابرة هنا تقف حاجزاً دون الاتعاظ بمعجزة الناقة، ونحن نعلم أن المكابر مغلق القلب أمام الحق.

ماذا جرى بعد ذلك؟!

بعد أن آنسوا من قومهم شعوراً بالتضايق من الناقة عزموا على التخلُّص منها.

ويلهم: ألم يطلبوها..؟ ألم يحدِّدوا أوصافها حينما طلبوها..؟ ألم يعاهدوا نبيَّهم صالحاً عليه السلام، على السمع والطاعة إذا أجيب طلبهم؟

بلى، كل ذلك كان، ولكنَّ المكابرة تقف حاجزاً دون معرفة الحق.

عزموا على قتل الناقة.

كيف؟

كانت هنالك عجوز شمطاء يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مجلز» وتكنَّى «أم غنم» وكانت كافرة شديدة العداوة لنبي الله صالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحدَ رؤساء ثمود.

وكان معها امرأة أخرى يقال لها: «صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا» ذات حسب ومال وجمال، وكانت زوجة رجل مسلم من ثمود، ففارقته.

اجتمعت المرأتان، واتفقتا على دعم أولئك الذين يريدون قتل الناقة.

دعت «صدوف» رجلاً اسمه «الحباب، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له "مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ما طلبت.

أما العجوز «عنيزة» فقد دعت رجلاً اسمه «قدار بن سالف بن جندع» وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان ولد زِنْيَة، أي أنه من الزِّنا، وليس من أبيه الذي ينسب إليه.

وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، هنا اشتعل الشر في قلبي الرجلين «مصدع، وقدار».

وهنا بدأت المأساة.

انطلق المكابر الكبير قدار بن سالف يرافقه صاحبه إلى بعض غواة قوم ثمود، يستفزونهم للمشاركة في هذه الجريمة فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ** ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: 48].

وكانوا رؤوساً في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة، فطاوعتهم على ما عزموا عليه.

هنا انطلقوا فرحين، يسبقهم قائدهم المكابر "قدار" الذي وصل إلى المكان المحدَّد قبلهم وفي نفسه أن يفوز بهذا العمل الخطير، حيث كمن للناقة في أصل صخرة على طريقها وكمن لها «مصدع» في مكان آخر، فمرَّت الناقة أوَّل ما مرَّت على «مصدع» فرماها بسهم فانتظم به

عضلة ساقها، وكانت العجوز «عنيزة» تراقب الحدث، فأمرت أجمل بناتها أن تكشف وجهها ورأسها أمام «قدار» الذي وعدته بتزويجه إحدى بناتها.

كان قدار جاهزاً نفساً وعقلاً لقتل الناقة، فانطلق إليها بسيفه فشدَّ عليها فكشف عرقوبها (أي: قطعه) فخرَّت ساقطة على الأرض، ورغت رغاةً واحدة تحذِّر بها فصيلها الذي كان يسير وراءها، وكان «قدار» يريد قتله مع أمه.

لقد أجهز على الناقة وطعنها في لبَّتِها فنحرها.

أمَّا فصيلها فقد ولَّى هارباً وهم يركضون وراءه، فصعد جبلاً منيعاً ودخل في صخرة فغاب فيها.

كان قدار بن سالف يشعر بإنجازه الكبير، لم يكن يستطيع أن يرى بعين بصيرته خطورة ما فعل، وأنَّى لعين بصيرته أن ترى وهو المكابر العنيد.

لَمَّا فرغوا من قتل الناقة، بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال:

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65].

لماذا بكى صالح، وقدار وجماعته يضحكون؟

لأنه يرى الحق حقاً، ويرى الباطل باطلاً، ويعلم النهاية السيئة التي سينتهي إليها قوم ثمود كلهم.

أما قدار وجماعته، فهم في غمرة هواهم، وفي خندق مكابرتهم لايرون وجه الحق، ولا يسمعون صوته.

هل وقف المكابرون عند هذا الحدِّ؟

كلاَّ...

فقد اتفقوا على قتل صالح عليه السلام، يقدمهم الذي عقر الناقة وقالوا: إن كان صالح صادقاً فيما أنذرنا به من العذاب عجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته.

حينما خيَّم الليل، ونشر ظلماءه في كل مكان، وحال بين الأعين وبين ما تراه، انطلق قدار ومعه جماعته إلى بيت صالح ليقتلوه، ولكنَّهم كانوا في غفلة مكابرتهم ناسين أنه نبيٌّ الله عليه السلام، وأنَّ الله مطلع على ما عزموا عليه.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: 50].

كانوا منطلقين إلى بيت صالح، ولكنَّ قدرة الله سبحانه وتعالى أسرع منهم، فقد أرسل عليهم حجارة فرضختهم وأماتتهم في مكانهم، فكانوا سابقين لقومهم في الهلاك.

هكذا غلَّفت المكابرة قلوبهم، وغلَّقت بصائرهم حتى وصلوا إلى هذه النهاية.

أين قدار بن سالف؟ وأين تلك العجوز الكافرة «عنيزة»؟

وأين ابنتها الجميلة؟ لقد تلاشوا وضاعوا في زحام المكابرة والضلال.

أرأيتم كيف تصنع المكابرة بالإنسان والعياذ بالله؟

1- حينما خرجت الناقة من الصخرة حالت المكابرة بين الكافرين وبين الخضوع لرب العالمين.

2- وحينما بثَّ صالح عليه السلام دعوته الصادقة حجزت المكابرة بين قدار بن سالف وجماعته وبين رؤية أضواء تلك الدعوةِ إلى دين الله.

3- وحينما ارتكب الرجل جريمة نحر الناقة رأى بكاء النبي صالح عليه السلام، فما زاده ذلك إلا عناداً، ولولا المكابرة البغيضة، لاعتذر وتاب، ولربما تاب الله عليه وأنقذ قومه ونفسه من الهلاك.

4- وحينما عزم مع جماعته على قتل نبيِّ الله صالح لم يكن ليتذكر معجزة خروج الناقة من الصخرة، فهي كافية للدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، ولولا المكابرة لأدرك ومن معه أنَّ الله سبحانه وتعالى سيحمي نبيَّه منهم.

انتهى كل شيء، ذهبت البيوت الفارهة، والنساء الجميلات والمكانة والشرف الدنيوي.

نسفت المكابرة كل شيء.

كان نصيب «قدار بن سالف» حجراً صلداً رضخ الله به رأسه فمات، مات كأن لم يكن موجوداً.

وكان ورهطه سبباً في هلاك قومهم أجمعين، إلا من كان مع صالح من المؤمنين.

ثلاثة أيام رأوا فيها عجائب قدرة الله سبحانه وتعالى.

اليوم الأول بعد قتل الناقة هو يوم الخميس، أصبح القوم فيه ووجوههم مصفرَّة ويوم الجمعة أصبحوا ووجوههم محمرَّة، ويوم السبت أصبحوا ووجوههم مسودَّة، وفي صبيحة يوم الأحد جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78].

لم ينج منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى.

قال ابن كثير في تفسيره:

قالوا: إنَّ جارية من قوم ثمود كانت مقعدة، يقال لها: "الذريعة" وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت هلاك القوم انطلقت رجلاها ، فقامت تسعى حتى وصلت إلى حيٍّ من الأحياء القريبة فأخبرتهم بما رأت وما نزل بقومها ثم استسقتهم من الماء.

فلما شربت «ماتت».

حتى أبو رغال رجل من ثمود لحق بقومه، فقد كان في الحرم حينما نزل بقومه مانزل فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصابهم!.

يالها من نهاية مؤلمة.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه :

«ألا أحدثك بأشقى الناس»؟

قال: بلى.

قال: **رجلان...**

أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة.

والذي يضرب بك يا عليُّ على هذا ـ يعني قرنه ـ حتى تبتلَّ منه هذه ـ يعني لحيته ـ.

وتؤكد الروايات أن الشقيَّ الثاني ـ عبد الرحمن بن ملجم ـ الذي قتل علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ضرب علياً على قرنه في الموضع الذي أشار إليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اللهم إنَّا نسألك السلامة من هذا الشقاء، ونرجو رحمتك، ونطمع في مغفرتك.

هكذا كانت نهاية «الأحمر الأزرق القصير»

«أحيمر ثمود»

«قدار بن سالف»

قال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: 12- 15].